آية العدد

فضيلة الشيخ:أبو بكر الجزائري

رئيس قسم التفسير بالجامعة الإسلامية

{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}

معلومات أولية:

هذه الآية الكريمة هي أول آية من سورة الإسراء، ومجموع آي هذه السورة الكريمة مائة وإحدى عشرة آية.. وكما تسمى هذه السورة بالإسراء تسمى أيضاَ بسورة سبحان، وسورة بني إسرائيل لذكر كل من الكلمات الثلاث فيها.. وهى مكية إلا بعض آيات منها، وكان عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه يقول فيها وفي سورة الكهف ومريم إنهن من العتاق الأدل ومن تلادي.. يعني أنهن مما نزل في مكة وأنهن من محفوظاته..

والآية لغة: العلامة وجمعها آي، أو آيات.. قال الشاعر العربي:

بادت وغير آيهـــن[1] مـــع البلـــى إلا رواكد جـــمـــرهن هـــبـــاء

ومشجـــج أما سوا قذاله فَبدا وغيب ساره المعـــزاء

شرح الكلمات في الآية:

{سُبْحَانَ}: اسم مصدر من سبح المضعف نقل إلى العلمية فأصبح علما على تسبيح اللّه تعالى أي تقديسه وتنزيهـــه عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله. وهو أي سبحان اسم جامد، يتصرف ملازم للبناء على الفتح لا يفارقه أبدا.

ومعناه: تنزيه اللّه تعالى عما لا يليق به من سائر النقائص والعيوب. وهو هنا مفيد مع التنزيه التعجيب من عظيم قدرة اللّه تعالى. وشرف النبي صلى اللّه عليه وسلم، القدرة الإلهية التي أسرت بعبد اللّه في دقائق من الليل من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى والمسافة بينهما مسيرة شهر للراكب، ثم إلى الملكوت الأعلى، وعادت به و إن فراشه ما زال دافئا لم

---

1 الشاهد في قوله غير آيهن يريد أن الزمان ومروره غير علامات الدار و لم يبق منها إلا رواكد أي أثافي صار الجمر الذي بينهن غبارا... ووتد قد بدا أعلاه وأما سائره فقد غاب في الأرض. إذا المشجج المضروب على رأسه فشج لذلك. وسواء فذاله يريد أعلاه. وساره هو سائره والمعزاء الأرض الصلبة ذات الحصى.

يبرد. والشرف النبوي الذي تم في هذا الإسراء والمعراج حيث رفــع اللّه عبده ورسوله إلى أن بلغ به مستوى وقف دونه جبريل عليه السلام وقال معتذرا حيث تخلى عن صحبة محمد صلى اللّه عليه وسلم وتركه ليرتفع وحده:

وما منا إلا له مقام معلوم.. وارتفع رسول اللّه حتى انتهى إلى مقام سمع فيه صرير الأقلام وشرفه ربه بالمناجاة والكلام.

أسرى: أسرى فعل ماض وفاعله اللّه عز وجل ومعناه: السير ليلا ومثله ت سرى وهما بمعنى واحد، وأن الإسراء يكون أول الليل، والسري بالضم ما كان أخره. وقد جمع الفعلين الشاعر في قوله:

حي النظيرة ربت الخــدر أســرت إلي و لم تكن تسري

وأسرى به، كسرى به أي سار به ليلا. والأول مصدره الإسراء، والثاني السري والسريان بالتحريك.

{بِعَبْدِهِ}:الباء للمصاحبة، والعبد لغة المملوك الذي عبدته الطاعة لسيده وذللته وهو هنا محمد النبي صلى الله عليه وسلم، والضمير عائد على الإسراء وهو الحق تبارك وتعالى. واختير لقب العبودية هنا عن لقب النبوة والرسالة .. وهما شرفان: لأمرين:

أحدهما: حتى لا تضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم به كما ضلت النصارى بعيسى بن مريم بسبب الغلو في الرفعة والكمال حتى يؤله غير الله تعالى ولذا قال صلى الله عليه وسلم: "لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، وإنما أنا عبد الله ورسوله فقولوا: عبد الله ورسوله ..." .

وثانيهم: أن لقب العبودية الخاصة أشرف من لقب النبوة والرسالة وذلك أن اتخاذ الرب المرء عبدا له خاصا به يتشرف بطاعته والقرب منه وبمناجاته وموالاته ومحبته أفضل من أنباء الرب للإنسان بأخبار، أو إرساله برسالة، وقد لاحظ هذا المعنى الشاعر العربي الذي نزل القرآن بلغته في قوله:

يا قوم قلبي عند زهراء	يعرفه السامع والرائي

لا تدعني إلا بيا عبدها	فإنه أشرف أسمائي

{لَيْلاً}: الليل معروف وهو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، وضده النهار، وهو من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.. وذكره مع الإسراء من باب التوكيد، كقول من قال جئت أمس نهارا أو أتيت البارحة ليلا، لأن الإسراء والسريان لا يكون إلا ليلا، وتنكيره لتقليل الفترة الزمانية التي كانت فيه، إذ أخبرت أم هاني بنت أبي طالب، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم نائما في بيتها ليلة الإسراء. أخبرت أن النبي صلى الله عليه وسلم فارق فراشه وعاد إليه وهو دافئ لم يبرد بعد ..

{مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}: من ابتدائية إذ بداية السري كانت من المسجد الحرام، وذلك أن الملك لما أخذه من بيت أم هانيء ذهب به إلى المسجد الحرام فأجرى له عملية شق الصدر وغسله بماء زمزم، ثم حشو صدره بالإيمان والحكمة أعدادا له للرحلة إلى الملكوت الأعلى.

والمسجد الحرام هو المكان الذي كان حول الكعبة الشريفة كالمطاف اليوم. إذ لم يكن المسجد الحرام مبنيا كما هو عليه اليوم. وسمي بالمسجد لسجود المصلين به..ووصف بالحرام لأنه بالحرم، وكل ما كان داخل الحرم وصف بلفظ الحرام كقولهم المشعر الحرام، والبيت الحرام، والبلد الحرام.

وهو أقدم المساجد على الإطلاق ودونه المسجد الأقصى، والصلاة فيه بمائة ألف صلاة وما حرمت مكة ولا شرفت إلا به، فهو كالبدر ومكة كالهالة له، والبدر أشرف من هالته.

{إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى} : إلى غاية، إذ انتهاء الإسراء كان إلى المسجد الأقصى، ومن ثم ابتدئ المعراج إلى الملكوت الأعلى.

والمسجد الأقصى هو مسجد بيت المقدس ووصف بلفظ الأقصى بمعنى الأبعد لبعده عن المسجد الحرام. واسم التفضيل (الأقصى) مشعر بوجود مفضل عنه وهو القصى. فما هو المسجد القصى بمعنى البعيد .. إنه المسجد النبوي الشريف غير أنه عند حدوث هذا الحادث الجلل ونزول هذه الآية الكريمة لم يكن موجودا إذ لم يبن إلا أيام هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة،غير أنه في علم الله تعالى حاصل وموجود فلذا أومأ إليه بلفظ الأقصى إشارة إلى وجود مسجد قصي دونه. ومن هنا ذكرت المساجد المفضلة الثلاثة في هذه الآية المكية، الأول والأخير بالنص، والثاني الوسط بالإيماء والإشارة، وفي الحديث الصحيح: "لا

تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ..المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى".

{الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ}: المباركة في الشيء إكثار الخير فيه وإدامته له.. وفاعل هذا هو اللّه تبارك وتعالى، وحول الشيء ما أحاط به من الأماكن القريبة منه والبعيدة.. والمراد به هنا أرض فلسطين والشام إذ بارك الله تعالى في تلك البلاد دينا ودنيا، إذ هي مجتمع الأنبياء، ومحشر الناس- وأرض الزروع والثمار والأنهار زادها الله بركة وطهرها من عداة أوليائه وكفرة نعمه.

{لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا}: اللام لام التعليل: إذ علة الإسراء وغايته أن يطلع الله رسوله على الملكوت الأعلى وما فيه من عجائب الخلق، ومظاهر العلم والقدرة الإلهية.

و (من) تبعضية إذ الذي رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم من آيات الله بعض ما له تعالى من الآيات فقط، وليس كل الآيات، وهذا معلوم بالضرورة.

و الآيات: جمع آية، وهي العلامة الدالة على وجود الشيء أوعدمه، وهي هنا مظاهر العلم والقدرة الإلهية المتجلية في خلق الله العظيم وصنعه البديع الحكيم من السموات والملائكة والأنبياء، والجنة والنار وما في الأولى من النعيم المقيم، والثانية من العذاب الجحيم، إذ كل ذلك رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة التاريخية الفذة التي لم يسبق لها نظير. والتي من حكمها: أن الله تبارك وتعالى قد أطلع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة إلى الملكوت الأعلى على كل غيب كان أخبره به وحيا في القرآن الكريم، فارتقى به من علم اليقين إلى عين اليقين:إذ ما كان غيبا له آمن به ودعا إلى الإيمان به أصبح شهادة له حيث رآه وأبصره وأحس به وباشره بجسمه. فرأى آدم أبا البشر ورأى إخوانه الأنبياء وجرى له معهم أحاديث، وتمت له معهم مقابلات عامة وخاصة، ورأى الجنة حيث بلغ إلى سدرة المنتهى والتي عندها جنة المأوى، ورأى الملائكة وشاهد نعيم الجنان من حور وقصور وعيون، وفوق ذلك كله وأعظمه وأجله مناجاة الله له وكلامه إياه وإدناؤه منه وتقريبه إليه ..الله أكبر!..ماذا وهب الله رسول الله!!

وصدق الله العظيم إذ يقول .. {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالأُفُقِ

الأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى}.

وقوله تعالى في هذه الآيات: {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ} إلى آخرها كله في المعراج المحمدي ومن هنا كان هذه اللفظة تقريرا لمعجزة المعراج، والتي أشير إليها في آية سبحان إشارة فقط بكلمة لنريه من آياتنا: إذ الآية نصا صريحا في الإسراء وليس كذلك في المعراج ولكن ما في آية سبحان من إشارة قررتها وأوضحتها آيات النجم، إذ فيها أنه صلى الله عليه وسلم رأى جبريل مرتين مرة بأجياد من مكة والثانية كانت بالملكوت الأعلى عند سدرة المنتهى في جنة المأوى، حيث أراه ربه تعالى من آياته الكبرى ما شرف به على أهل الأرض والسماء، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم..

{إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}:في هذه الجملة التفات من التكلم إلى الغيبة..ونكتته البلاغية تربية المهابة في النفس السامع.

ومعنى هذه الجملة:إثبات صفتي السمع والبصر لله تعالى. وهما صفتان ذاتيتان أزليتان. بهما يسمع كل صوت، ويبصر كل ذات وصفة الحصر الناجمة عن ضمير الفصل، وتعريف المسند بالألف واللام دالة على أن صفات الخالق عز وجل الذاتية أو الفعلية صفات تخصه لا يشاركه فيها غيره، ولا يشبهه فيها أحد. وبيان ذلك أن صفات المخلوق كالسمع والبصر والعلم والإرادة والحياة مثلا ليست ذاتية له بل هي موهوبة ككل حياته من خالقه عز وجل، فالإنسان حي بالله وبه يرى ويسمع ويبصر، ولولا ما وهبه اللّه من ذلك ما كان شيئا ولا كان له شيء. إذ خلقه من قبل و لم يك شيئا..

وهذا سر حصر هذه الجملة السمع والبصر في اللّه ونفيها لهما ضمنا عما سواه..

والغرض الذي سيقت له هذه الجملة الكريمة هو تقرير حادثة الإسراء والمعراج، وأنها تمت على سمع وبصر من الله تعالى على حد قوله: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى } وفي ذلك من تشريف النبي صلى الله عليه وسلم والإعلاء من شأنه ما لا يقادر قدره، ولا يدرك مداه.

معنى الآية العام:

والمعنى العام لهذه الآية التي شرحنا كلماتها للقارئ الكريم ليتأتى له استيعاب معناها كاملا وتفهمه له، على وجه ينتفع به:

هو أن اللّه تعالى أخبر عن تنزيه نفسه من كل ما لا يليق به، ويتنافى مع جلاله وكماله من سائر العيوب والنقائص. معجبا عباده من قدرته العجيبة حيث أسرى بعبده ورسوله محمد صلى اللّه عليه وسلم ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعرج به إلى الملكوت الأعلى، وأراه من آياته الكبرى في ذلك الملكوت الأعلى، وأراه من آياته الكبرى في ذلك الملكوت الأعلى الأمر الذي لم يحصل لغيره و لم يتم لأحد سواه. منوها بفضل المسجدين الشريفين: الحرام والأقصى..

معللا لهذه المعجزة الكبرى والآية العظمى- الإسراء والمعراج- مبينا الغرض منها وهو أن يرى رسوله وحبيبه من عظائم صنعه، وعجائب خلقه، وأن يقف به على تلك الغيوب التي أعلمه بها وحيا، أوحاه إليه، وعرفه عليها بإخباره بها فأصبح الإيمان بها يقينا، واليقين فيها عين اليقين إذ ليس الخبر كالعيان، ولا الإنباء كالمشاهدة.

فقرر تعالى بهذه الآية الكريمة، مبادئ الإيمان وحقائقه وهي تفرده تعالى بالربوبية، والألوهية والكمال. وإثبات نبوة محمد عبد اللّه ورسوله صلى الله عليه وسلم بأعظم دليل وأقوى برهان وتقرير مبدأ المعاد والجزاء في الدار الآخرة بالوقوف برسوله على عالمي الجزاء من دار ا السعادة ودار الشقاء.

قال رجل لعبد اللّه بن مسعود: علمني كلمات جوامع نوافع. فقال: اعبد اللّه ولا تشرك به شيئا، وزل مع القرآن حيث زال. ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيدا بغيضاً، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه وإن كان حبيباً قريباً.

(ابن مسعود)